Haoamish



فرنان بروديل : الرأسمالية تنتظر أزمة أسوأ من أزمة ١٩٢٩ .. مصطفى نور الدين عطية

الاثنين 1 كانون الأول (ديسمبر) 1986, بقلم مصطفى نور الدين عطية



فرنان بروديل في الذكرى الاولى لرحيله

الرأسمالية تنتظر ازمة اسوأ من ازمة ١٩٢٩

في السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) المنصرم، فقدت فرنسا احد كبار علماء التاريخ فيها فرناند بروديل، كبير مدرسة «الحوليات»، ومؤرخ البحر الأبيض المتوسط واليوم تخرج المطابع الجزأين الثاني والثالث من كتابه الأخير «هوية فرنسا». لمناسبة صدور الكتابين، ولمناسبة الذكرى الأولى لرحيل بروديل هذا المقال عنه وعن اتجاهه في كتابة التاريخ

لا يمكن لأحد أن ينكر حضور بصمات فرناند بروديل على المدارس التاريخية المعاصرة في الغرب.. فليس الاتفاق معه فقط هو ما يطور كيفية

كتابة التاريخ وانما ايضاً الاختلاف الذي تثيره منهجيته الشمولية وقوله بالخصوصية.. فيصعب على اتباعه كما مخالفيه أن يقفزوا فوق اسهاماته. اذ يعني ذلك ان تتسم كتاباتهم بالقصور..

ولد بروديل في أوائل القرن العشرين (عام ١٩٠٢) في «لوميفيل - ان - اورنوا» شمالي شرقي فرنسا بالقرب من الحدود الفرنسية - البلجيكية وعمل بتدريس التاريخ في مدرسة بالجزائر لمدة عشر سنوات (١٩٢٣ - ١٩٣٢) في مدينة قسنطينة.. ثم عاد الى باريس ليدرس في ثلاث من مدارسها.. ويعاود الرحيل في عام ١٩٣٥ نحو البرازيل للتدريس بجامعة ساو باولو لمدة أربع سنوات.. بعدها يستقر في باريس للتدريس في «المدرسة التطبيقية للدراسات العليا» الى ان يعبأ في الجيش في ١٩٣٨، ويسجن لمدة خمس سنوات في معتقلات المانيا بين ٤٠ - ١٩٤٥..

وفي السجن يكتب اطروحة الدكتوراه التي سيناقشها عام ١٩٤٧ والتي تمخض عنها كتابه الذي اعتبر الحجر الأساسي لبناء منهجه في كتابة التاريخ، أي كتاب: «البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط في عهد فيليب الثاني».

يقول بروديل: «بدأ اهتمامي بالبحر المتوسط والعالم الذي يشكله منذ ١٩٢٢.. وأنجزت كتابي حول الموضوع بعد ذلك بربع قرن..«فأنا أحب البحر المتوسط حباً جماً مثلما يحبه الكثيرون ومثلما أحبه الكثيرون. وربما يرجع هذا الوله به الى اني ولدت في الشمال». ويقول: «البحر المتوسط هو الاستمرارية، أو اذا فضلتم هو كلّ شامل وبالتالي اذا تناولت أحد مظاهر البحر المتوسط، سواء كان هذا التناول متعلقاً باختيار جغرافي، أو تاريخي، فانه من الهام أن تتم لهذه المشاهدة (التحقق)، والشرح كليهما معاً امتزاج (انصهار) في شروح اخرى ومعالم اخرى...».

ففي البحر المتوسط، في القرن الخامس عشر أو في القرن السادس عشر، عندما يحل فصل الشتاء، تدخل كل المراكب في الميناء، ولا تعاود الابحار في طول البحر وعرضه الا عندما يصبح الجو جميلاً، في شهر نيسان (ابريل)، ويحدث هذا كل سنة أياً كانت الأحداث والأوضاع وبالنسبة لكل الحضارات الموجودة في محيط البحر المتوسط، فالحركة واحدة في كل صوب. ونجد حركة مضاهية

في ما يتعلق بالقطعان التي تصعد نحو المرتفعات وتنزل الى الوديان الدافئة. فهي حركات تتكرر، وتستمر، ويلوح وكأن لا شيء يتغير.. هذا التاريخ الساكن هو ما انتهيت بأن اسميته تاريخ الديمومة، وهو هيكل التاريخ، وتفسيره وتفسير البحر المتوسط نفسه، وتفسير بلد مثل بلدنا (فرنسا)...

ان بروديل يقدم نظرة جديدة. فهو يريد الا يكون التاريخ وموضوع المؤرخ الحدث العابر

اليومي أو حتى الحدث الممتد لفترات زمنية قصيرة سنوات قليلة أو عشرات السنوات، ولا ان يكون موضوع التاريخ هو الأفراد وانما يطلب الذهاب الى العمق. وذلك يقتضي نظرة طويلة الأمد للمجريات، ورصد التغيرات شديدة البطء التي تلحق بها عبر القرون.

فالنظرة قصيرة المدى الزمني تدخل في ابواب أخرى مثل الصحافة.. فارتفاع الأسعار أو الجرائم أو الكوارث الطبيعية أو كل مظاهر الحياة الأخرى اليومية في أي ابعاد لها أكانت سياسية أم اجتماعية «لا تشكل كل الحقيقة أو الواقع، ولا كل قوام التاريخ الذي يجب ان يستند عليه الفهم العلمي». ويقول بروديل «ان العلم الاجتماعي تصيبه الأحداث بما يقترب من الهلع، وليس ذلك دون سند أو سبب وانما لأن المدى القصير يُعتبر اكثر الحقب تقلباً وتعريضاً للسقوط في الأخطاء».

ان دخول عالم بروديل هو دخول في عالم موسوعي، حيث تنتفى كل حدود بين العلوم الاجتماعية. فالمعركة التي فجرها بكتابه الأول، ثم

بكتبه التالية، لم تقف عند الصراع النظري ورفض فكرة التخصص الضيق لكل علم اجتماعي على حدة.. فعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا والاقتصاد وعلم النفس وعلم السكان... الى آخره، هي علوم تتكامل مع التاريخ. بل لا يمكن ان يكتب التاريخ دون ان تكون تلك العلوم أدوات في يد المؤرخ.

هذ الصراع اذن حوله بروديل الى حقل الممارسة فكتابته للتاريخ تعالج بعمق كل بعد من ابعاد الحياة الانسانية. ويقيم العلاقة الحولية بين كل ابعاد الحياة. فعندما يتكلم عن الاقتصاد يتطرق الى الطرق التجارية والبحرية، والموانىء التي تتحكم في التجارة وعن السلع المتبادلة وعن الأسعار وعن السكان وعن دور المدن الكبرى وعن المناخ.. الى آخره.

قاد بروديل طوال حياته معركة فكرية ضد تجزئة المعرفة الانسانية واقامة الوحدة داخل العلوم الاجتماعية - وهي وحدة يطالب بأن تتوصل العلوم الاجتماعية بها الى ايجاد لغة مشتركة

بينها. يقول بروديل: «اتمنى ان تكف العلوم الاجتماعية، ولو مؤقتاً، عن العراك فيما بينها عن الحدود التي تفصل كل منها عن الآخر، وعن العراك حول ما هو علم اجتماعي وما ليس بعلم اجتماعي.. أو عما هو «بناء» وما ليس بناء.. وأن تحاول، كأولوية، رسم خطوط، عبر ابحاثنا، توجه دراستنا الجماعية....».

معركة مع ليفي شتراوس

وكانت معركة بروديل مع كلود ليفي شتراوس عالم الانثروبولوجيا البنيوية قد تفجرت في اواخر الخمسينات حينما هاجم شتراوس التاريخ في كتابه «الانثروبولوجيا البنيوية» وقال «بعدم احقية التاريخ في تعريف ذاته كعلم اجتماعي».

ويرد بروديل بأن التاريخ لا يمكن ان يحصر نفسه في اطار الأحداث ودراستها، وان دوره ليس الكشف عن «البنيات» فقط وانما هذه البنيات هي محل وموضع دراسته الأولية ويحدد الخلاف بين الفهم لكلمة بناء بين المؤرخين وعلماء الانثروبولوجيا.. في «ان البناء عند الانتروبولوجيا يعني النظام، وترابط العلاقات المحددة بين الوقائع والكتل الاجتماعية. بينما البناء لدينا نحن المؤرخين، يعني دون شك ايضاً الاجتماع والصرح. ولكن اولاً وقبل كل شيء يعني واقعاً

أوحقيقة تقاوم ضد الزمان وتستمر لوقت طويل.. فبعض البنيات تحيا طويلاً وتصبح عناصر ثابتة لأجيال لا حصر لها بحيث تقوم بارباك التاريخ بوقوفها عقبة أمام مسيرته، وبمعنى آخر تقوده.. بينما نجد بنيات أخرى تنهار بسرعة. فهذه البنيات هي دعامات وعقبات في وقت واحد. فالعقبات تتعين كحدود لا يقدر الانسان وخبراته على تخطيها. ويكفي التفكير في صعوبات تحطيم بعض الأطر الجغرافية أو بعض الحقائق العضوية (البيولوجية) أو بعض الحدود المتعلقة بالانتاجية.. بل بعض الضغوط الروحية فبعض الأطر الذهنية أو العقلية ايضاً تظل سجينة في الحقبة الطويلة».

ان الخط الذي يفصل بين الأنثروبولوجيا التي تدعي لنفسها حق ابتلاع التاريخ، وبين التاريخ الذي يُضمِّن مادته الانسان ومحيطه يبدو في معادلة بسيطة.. فالأنثروبولوجيا تلغي عامل الزمن وتدرس المجتمع في لحظة محددة لتشريحه، وهو ما حدا بالمؤرخ بروديل و وبالكثير من المفكرين للقول بأنها واحدة من «العلوم الامبريالية».. ولكن التاريخ يدرس المجتمع وحركته البطيئة الممتدة عبر الزمان.

ويقول بروديل بأن كل العلوم الاجتماعية، بما فيها التاريخ، تواجه أزمة امام العصر الجديد.

واذا كان هناك عالم جديد فلمَ لا يوجد ايضاً تاريخ جديد؟ فعمل المؤرخ هو عمل نقدي، ومحاولة الدفاع عن الذاتي كغريزة يؤدي الى التهلكة، ولكن الجانب النقدي في عمل المؤرخ لا ينفي كونه عملاً يعيد تشييد التاريخ.. وهو عمل شديد الصعوبة.

وان كان البعض يقول بانه لا يعتبر العلم علماً ما لم يمتلك القدرة على تقديم «النبوءة»، فان بروديل يقول. «بانه اذا اخذنا هذه المعادلة القديمة في الاعتبار فان اياً من العلوم الاجتماعية، بما فيها التاريخ، لا يمكنه إدعاء حمل صفة العلم. فلن تكون هناك نبوءة ان لم تكن هناك استمرارية في التاريخ، وهو ما يشك فيه بشدة علماء الاجتماع، لا المؤرخون».

موضوعي أو ذاتي؟

ويرفض بروديل الدخول في النقاش العقيم، حول موضوعية او ذاتية المؤرخ. فبالنسبة له لا يمكن وضع الموضوع في اطار العلاقة بين الرسام واللوحة ولا حتى بين اللوحة والمشهد الذي تمثله وانما يوجد الموضوع في المشهد ذاته، أي في قلب الحياة. فهذه هي المشكلة التي تتحدد على أساسها

مسألة التاريخ.

ولا يأخذ بروديل بفكرة تفسير التاريخ بدءاً من عامل مسيطر، فهو يرى في ذلك خطأ في التفسير. ويقول بأنه من الطفولي اغفال حقيقة الأحداث أو دور الفرد الا انه يجب الاعتراف بان الفرد يظل دوره في التاريخ مأخوذاً كنوع من التجريد.. اذ لا يوجد اطلاقاً في الواقع التاريخي الحي فرد مغلق على نفسه. فكل المغامرات الفردية تستند الى حقائق اكثر تعقيداً، أي الحقائق الاجتماعية، وهي حقائق تتقاطع حسب تعبير علماء الاجتماع.. وان المشكلة ليست في نفي الفرد تحت دعوى انه واجه حوادث لم يكن حدوثها مرتقب، ولكن المسألة ان هذه الحوادث تتجاوزه وتتميز عنه من خلال قوى مختلفة عن التي يمتلكها. ومن هنا فان دور المؤرخ هو مواجهته هذا التاريخ الذي يُكتب بشكل تعسفي ويُختزل على دور الأبطال الخُلّصْ.

ويقول بروديل: «ببساطة نحن ضد العبارة المتغطرسة المخطئة التي قالها «تريتشيك»، «بأن البشر يصنعون التاريخ».. لا فالتاريخ يصنع ايضاً البشر ويصوغ مصائرهم».

فدور المؤرخ عند بروديل هو ان يتجاوز مبالغات

مدرسة التاريخ التقليدية. وان يعالج الحقائق الاجتماعية في ذاتها ولذاتها. اي كل اشكال الحياة الجمعية، الاقتصادية والمؤسساتية والصُرح الاجتماعية والحضارات. أي كل الحقائق الاجتماعية، التي لم يغفلها مؤرخو الأمس، وانما نظروا اليها، في الغالب، كخلفية، تُطرق فقط لتوضيح، انجازات «الأفراد ذوي الطبيعة الخارقة» الذين ركز عليهم كتّاب التاريخ بأسلوب مجامل.

وهذا الدور الذي يطالب بروديل باتخاذه، عبر منهج جديد، يلقي جانباً المعايير القديمة التي اتبعتها مدرسة التاريخ التقليدية ليعلن عن مولد تاريخ جديد تبعته ثقيله. فالتطرق الى أبعاد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية... وكل المظاهر الأخرى يستلزم ان تستوفي المصادر الاساسية للمؤرخ طابعاً جديداً ومكتملاً وغزيراً... بل يذهب الى أبعد من ذلك ويقول «بل انني أشك ان يكون أسلوب العمل الحِرَفي المعتاد للمؤرخ بقادر على الوفاء بطموحاتنا الحالية. والخطورة التي قد يتضمنها استمرار العمل على هذا النحو وما يطرأ عن مصاعب يمكن ان تحلها فقط مناهج العمل الجمعي... أي من خلال جماعات عمل». فالمهمة

الملقاة على عاتق «التاريخ الجديد» لا نهاية لها اذ تستلزم اعادة تشييد الماضي من جديد.

ان النموذج التاريخي الذي ينشده بروديل والذي سعى طوال حياته لتجسيده، هو نموذج التاريخ الشامل الذي يهضم او يتمثل كل العلوم الانسانية بداخله. فالجغرافيا وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وكل سلسلة العلوم الأخرى التي ولدت مع بداية القرن العشرين هي بالنسبة له كالمنار الذي ارشده الى الكيفية التي تعاد بها صياغة وبناء التاريخ.. فهو يعترف بفضل علماء الجغرافيا عليه من امثال فيدال دي لا بلانش وكتابة الشهير حول «جدول جغرافية فرنسا».. ومن بين علماء الانثروبولوجيا يحتل لديه مارسيل موس مكانة الأب الروحي الذي علمه فن دراسة الحضارات.. وكذلك عالم الاجتماع جورج جروفيتش مع ما يحمله من خصوصية، ناهيك عن اسهامات الاقتصاد الكمّي عند «فرانسوا سيميان» وإرنست لابروس.

وهذا الانفتاح على العلوم الاجتماعية والانسانية تعود بدايته في فرنسا الى ما قبل بروديل على وجه التحديد الى اوائل القرن الحالي ولكنه

يتطـور بشكل ملمـوس ومقصود مـع بدايـة الثـلاثينيـات وتـأسيس مجلـة «الحـوليـات» (ANNALES) الشهيرة التي اسسها كل من «مارك بلوك ولوسيان فيفر، واصبح بروديل مدير تحريرها بين ١٩٤٦ و١٩٦٨.

ويقول بروديل عن هذا الالتحام في داخل مدرسة التاريخ الجديد مع العلوم الاجتماعية الأخرى «ان المؤرخ (الجديد) شاء ان يكون يقظاً ومهتماً بكل علوم الانسان.. وهو ما أعطى لمهنتنا تخوماً غريبة وفضولاً غريباً.. فعلوم الانسان بما فيها التاريخ، يصيب كل منها الآخر بالعدوى.. فهي علوم تتكلم نفس اللغة، أو بامكانها أن تتكلم نفس اللغة».

هذه الامكانية التي يقول بروديل بها تعني في الواقع المشكلة المثارة بين «التاريخ الجديد» والعلوم الاجتماعية والانسانية الأخرى.. فهذه العلوم، كما سبق وقلنا، لم تكن تعترف بالتاريخ كعلم.. ومن ناحية أخرى فان مدرسة التاريخ الجديد لها مع العلوم الاجتماعية معركة لم تتوقف حتى الآن.. لأن هذه العلوم تحاول الهرب من التاريخ كأساس لتفسير الظواهر محل دراستها

وذلك اما بالمنهج الذي يستند الى الحوادث بدراسات اجتماعية تعتمد على علم الاجتماع التجريبي.. او بمنهج آخر يتجاوز الزمان، ويتخيل علم اتصال له بنيات مكونة بأسلوب رياضي ولازمني اطلاقاً.. في حين ان المؤرخ حسب بروديل «لا يخرج اطلاقاً من زمن التاريخ، فالزمان عالق بتفكيره مثلما تلتصق الأرض بمعزق (بفأس) الجنايني...».

واذا كان بروديل قد جسّد تفكيره النظري في كتابه العملاق حول «البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط في عهد فيليب الثاني»، فانه قد تطور هذا التفكير وزاد عمقاً في كتابه «الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر».. ويقول بروديل «بدأت افكر في موضوع هذا الكتاب منذ عام ١٩٥٠، حينما اقترحه عليّ لوسيان فيفر، الذي كان مقرراً ان يكتب موضوعاً يتكامل معه حول «الأفكار والاعتقادات في الغرب» لذات الفترة، الا انه بموته عام ١٩٥٦، كان عليّ أن انجز وحدي نصيبي من هذا المشروع حول المجال الاقتصادي والذي اقتضى أن اعمل على اتمامه في عشرين سنة»..

دراسة الحياة المادية

يدرس بروديل في هذا الكتاب، أربعة قرون من الزمان. ويقسم الى اجزاء ثلاثة. الأول يسميه «بنيات الحياة اليومية» والثاني «عناصر التبادل» والثالث يسميه «زمن العالم».

يبدأ بروديل ثلاثيته عن الاقتصاد العالمي بدراسة الحياة المادية بالتفصيل للدراسة السكانية، والغذاء والملابس والسكن، والتكنيك والنقود والمدن... الى آخره. وهدفه من هذه البداية أن يُطوّق حقل الفعل أو العمل في الاقتصاديات السابقة على التصنيع وامتلاك وادراك كثافتها أو قوامها..

ويقيم بروديل عبر تفاصيل الحياة المادية نسقاً أو بناء يظهر فيه الانتظام الذي خضعت له داخل وضمن الحقب الزمنية الطويلة بحيث يتجلى الطابع المصطبغ بالديمومة والمتواري خلف اللاانتظام الذي يلوح في الظاهر. وكأن هناك اذن قانون يحكم هذه الحياة المادية على المدى المتوسط والطويل. اذ داخل هذا الثبات يحدث تطور بطيء، مثل ذلك الذي يتم بين المدن والريف، ولكنه تطور يخضع لتدخل الانسان بقدر اكبر مما تخضع له قطاعات تاريخ الانسان الأخرى غير المادية..

ويقول بروديل ان الحضارات المادية تخلق

علاقات ونظاماً بين الاف المنتجات الثقافية المتكدسة وتلوح من النظرة الأولى كما لو كانت كل واحدة منها غريبة عن الأخرى بداية من تلك المتخلقة عن الروحانيات والعبقرية حتى الأشياء والأدوات المستخدمة في الحياة اليومية.

ويطور البشر ابداعاتهم الثقافية، كلٌ وما يتفق مع مطلبات المواجهة الخاصة به حيث يتجمعون: ومع نهاية القرن الخامس عشر تبدأ البشرية حركة صيرورتها نحو التوحد. ولكنه يضيف: «برغم ان ذلك لم ينجز نهائياً بعد».. وقبل ذلك ومع الصعود في التاريخ البعيد لقرون سابقة نجد ان كل تجمع بشري يتحصن بحضارات وثقافات خاصة به وان كلا منها يتمايز عن الأخرى.

بخصوصيتها وخياراتها تعني الحقب طويلة الأمد كل منها على حدة، حتى ولو كانت متجاورة أو قريبة الواحدة من الأخرى. ولكن النظرة العميقة تظهر تميزاً آخر فيما بينها وبداخل كل منها. وهو وجود الفقراء والأثرياء، والانقسام بين البؤس والبذخ. وامتلاك وسائل الانتاج والأرض والمراكب

والمواد الأولية والمنتجات من ناحية وما يعنيه من وضع مهيمن من ناحية اخرى.. ثم الدور الذي تلعبه الدول المتعددة الصور والذي يعطي غالباً نتائج مأسوية بتدخلها وبث الاضطراب في العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية وتعديلها. ويسفر ذلك عن اعطاء صور اقتصادية اجتماعية للعالم عبر تصنيفات لهذا المجتمع: كمجتمع عبودي وآخر ينقسم بين أرقاء وسادة وغيرهم رجال أعمال وما قبل رأسماليين. ويقول بروديل: «أي نعود الى لغة ماركس حتى ولو رفضنا مصطلحاته ذاتها أو النظام الصارم الذي يقول به من تحول المجتمع من بناء الى آخر.. فالمشكلة تظل مسالة تصنيف وتدرج للمجتمعات لا يقدر احد على الهروب منها كضرورة». والواقع ان بروديل برغم اعادة كتابته للتاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي للعالم انما أراد ان يكون عمله بديلاً للماركسية، ومع ذلك فهو يعترف بان «عبقرية ماركس وسر استمراريته تتأتى من انه كان أول من ابتدع النماذج الاجتماعية الصحيحة استناداً الى مبدأ الفترات طويلة المدى التاريخي، غير ان هذه النماذج جمّدها من جاء بعده وتم تبسيطها وتحويلها الى قوانين تشرح مسبقاً وآليا، وتنطبق

على كل الأماكن في كل المجتمعات».

واراد بروديل ان يكون الجزء الأول من ثلاثيته عن الحضارة المادية بمثابة الأساس يتلوه الدور الأول الذي يعنى به مجمل نماذج وعناصر التبادل التجاري داخل المجتمعات.. وذلك بدءاً من التبادل العيني، منتج مقابل منتج آخر، حتى اعلى انواع التبادل الرأسمالي المعاصر في أعلى صور رقيها.. وذلك لكي يكشف عن عملية الانتظام داخل هذه التبادلات والآليات التي تحكمها.. ويسخر لبحث ذلك الجزء الثاني من كتابه عن «عناصر التبادل».

ويرفض بروديل استخدام مصطلح الرأسمالية كمرحلة في تطور المجتمعات وذلك قبل بداية القرن العشرين، بل يعتبر استخدام هذه الكلمة من قبل البعض للفترة الممتدة بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر كنوع من «الخطيئة الكبرى». فبلوغ مرحلة الرأسمالية، كمرحلة عليا، تم عبر عملية تمهيد لها طوال قرون وتطور ظروف اجتماعية واقتصادية ضرورية. وأهم هذه الظروف ظهور وتطور اقتصاد السوق بالاستناد الى مجموعة من العوامل الهامة الجغرافية والسكانية والزراعية والصناعية.. الخ.. علاوة على دور التجار. وذلك في أوروبا وافريقيا وآسيا وامريكا..

ويضاف لتلك العوامل عوامل أخرى سياسية وتاريخية اكثر خصوصية من العوامل الاقتصادية والاجتماعية.. ولكن كلها تشكل حركة كلّ متعدد القطاعات داخل المجتمع. وتعبر عن نفسها في كل مجتمع بصورتها الخاصة بها.. غير ان ذلك لا يتحقق. في اللحظة الحاسمة دون تدخل الأثر والفعل الخاص للسوق العالمي. فالتجارة البعيدة، برغم انها ليست كل شيء، الا انها الطريق والمعبر

الاجباري نحو انجاز المرحلة العليا لتحقيق الربح. اذ ينجز في النهاية عبر تلك العملية ما يسمى بـ«الاقتصاديات - العوالم» (Economies - Mondes)، أي تلك المجالات المغلقة التي تشيدت في ظل ظروف نوعية، وكأجزاء مستقلة في العالم. ولكل واحد منها تاريخه الخاص ولأن ما طرأ على حدودها عبر الزمان خلق كيانات كبرى مناظرة لأوروبا..

ومع هذه «الاقتصاديات - العوالم» تبدأ مرحلة جديدة على مستوى التنافس والهيمنة. وذلك عبر قواعد تتكرر، في الغالب، ويمكن تتبعها داخل تتالي تاريخ أوروبا والعالم عبر تتابع النظم العالمية المشكلة للرأسمالية ككل في نهاية المطاف.

والجزء الأخير من ثلاثية بروديل مخصص بكامله لدراسة تفصيلية لهذا «الاقتصاد - العالم» في تنوعه وتشابكه وطوال القرون الأربعة على الصعيد العالمي.. ويقول بروديل: «ان الرأسمالية كما فهمتها تبدو كمؤشر جيد، لمتابعة وطرق المشاكل الأساسية حول الفترات الطويلة الأمد وتقسيم الحياة الاقتصادية، والاقتصاديات - العوالم والتذبذبات التي تحدث في مدى قرن من الزمان والذبذبات الأخرى وكذلك لرصد حركة التشابك وفك التشابك داخل تراكيب التدرج الاجتماعي، لكيلا نقول صراع الطبقات.. أو الدور القوي الملحاح والمتنوع للأقليات المهيمنة وكذلك للثورات الصناعية».. ويخلص الى انه «من الخطأ تصور الرأسمالية كما لو كانت تطوراً لمراحل متتابعة: رأسمالية تجارية، ورأسمالية صناعية ورأسمالية مالية... مع تحقق تقدم من مرحلة الى أخرى، اذ ان الرأسمالية الحقيقية تبدأ متأخراً بالهيمنة الكلية على الانتاج.. اما قبل ذلك فان الحديث يجب ان يقتصر على الكلام عن رأسمالية تجارية. بل ما قبل رأسمالية.. اذ ان التجار الكبار لم يتخصصوا وانما مارسوا في وقت واحد، أو

بالتدريج، التجارة، والبنوك والمال والمضاربة في البورصة والانتاج الصناعي.. بمعنى آخر كان هناك تعايش لأشكال متعددة من الراسمالية في فلورانسا او في امستردام أولندن وذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حينما تبدأ آليات الانتاج الصناعي وما يعنيه ذلك من ارتفاع قيمة الارباح الناجمة عنه، وهنا بدأت الراسمالية آليات تمركزها.

ويقول بروديل ان رأسمالية اليوم بشركاتها المتعددة الجنسية الأميركية المهيمنة على جزء كبير من الاقتصاد العالمي هي شكل آخر محوّر من الأشكال الراسمالية السابقة التي تمثلت في التروست أو في الشركات الاحتكارية.. وان هذه الرأسمالية لا يمكن ان تتحطم ذاتياً بفعل تناقضاتها الداخلية، وانما لكي تسقط لا بد أن تأتيها الصدمة من خارجها على ان تكون صدمة شديدة العنف وعلى ان يكون الحل المقدم كبديل لها له صلاحية فعلية.. اذ ان هذا المجتمع الهائل القوة والمقاومة التي تمتلكها القلة المتحكمة كلية فيما هو ضروري للعيش، والتآزر فيما بينها على الصعيد العالمي، لا تقلقل عن مكانتها البرامج الايديولوجية ولا الانتصارات الانتخابية المؤقتة. فكل الانتصارات الاشتراكية في العالم استفادت

من هذه الصدمة الخارجية العنيفة سواء كان ذلك في روسيا أو في أوروبا الشرقية أو في الصين او في كوبا أو في فيتنام.

ويضيف بروديل «لا ينكر أحد ان الأزمة التي تهدد الراسمالية منذ ١٩٧٠ اعنف من ازمة ١٩٢٩. ولكن الراسمالية كنظام يمتلك القدرة على تجاوزها اقتصادياً، (ولا اقول ايديولوجياً)، بل هناك احتمال ان تخرج الرأسمالية من أزمتها اكثر قوة».

كلمة اخيرة. ان بروديل الذي اصبح في العام ١٩٨٤ عضواً في المجمع العلمي الفرنسي، كان قد بدا ثلاثية اخرى حول «هوية فرنسا» ولكنه مات في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥ قبل ان ينجزها بالكامل واخرجت المطابع الجزئين الأول والثاني وسوف يصدر الثالث قريباً.

مصطفى نور الدين عطية